في التاريخ الإسلامي

وحي المكيافيلية

في مصرع البرامكة وأبي مسلم الخراساني

للأستاذ صلاح الدين الشريف

حركة التاريخ الإنساني في اطراد تقدمها وتسلسل حقباتها ، تطوي معها ألوانا من الأحداث والانقلابات ، تناولت حياة المجتمعات السياسية بضروب من التغيير والتجديد . فكم من الأوضاع الاجتماعية تفككت عراها وانحلت روابطها وتداعت تحت أعباء من عيوبها ، وكم من نظم سياسية لم تزل تستحيل وتتقبل وجوه المؤامرة والثورة على مدى الزمن ، حتى اتخذت وضعا ترتضيه عقلية من ثاروا بها وبرموا بجمودها ونقصها ، وتطلبوا المثالية المحلقة والكمال الأعلى في إقامتها على أسس جديدة من الحق والعدل والخير ، على غرار ما تصورها لهم مخيلاتهم .

ولقد يكتب الفوز لبعض هذه الفورات الاجتماعية والانقلابات السياسية التي حفلت بها صفحات التاريخ ، فتصبح المحاولات غير المشروعة المستندة في بادئ أمرها على المؤامرة والانتقاض على السلطان ، نظاما سياسيا مشروعا لا يلوثه بغي ولا يشوبه ظلم أو جور ، وقد يستوي الأمر لطريدي الأمس وخوارجه فاذا بهم قد نعتوا بأعظم صفات الإيثار والتضحية وخلعت عليهم ألقاب البطولة والمجد !

وهكذا قامت معارك السلطان والسيادة بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة الواحدة وغيرها من الجماعات ، بل بين الأفراد بعضهم بعضا ، ولم تكن سبل هؤلاء جميعا إلى أهدافهم تلك ، سوى بوارق من النهزات العارضة تتيحها لهم تطورات الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فإذا هم يقبلون على معالجة الأمر كل بما يمليه عليه وجدانه تارة أو منطقه تارة أخرى . وهكذا ينساق فريق بدافع من الطمع المتقد وحافز من الجشع الأشر ، ولا ينسى أن يستتر وراء دعوته بستار زائف من نبل القصد وشرف الغاية ، على حين تحتث الفريق الآخر دوافع التضحية النبيلة وتستنهضه حوافز الكرامة القومية والغيرة على الصالح العام ، فهو يعلن عصيانه على الأمر الواقع ، لا يبالي من الوسائل الملتوية كالكيد والدس والوقيعة ، بل إنه ليجهر بالثورة الدامية وينساق قدما وراء عصيانه وثورته !

ولقد خضع المجتمع الاسلامي بدوره لتلك الحوافز الدافعة التي سلحت الفرد بسلاح التآمر والثورة على جماعته ، أو سلحت الجماعة واستجاشت سخطها لتقوى على تحطيم شركة الدكتاتور الطاغية المتحكم في مصايرها وأقدارها . ولعل الكاتب الفلورنسي الداهية "نيقولا مكيافالي" عندما أوحت إليه مخيلته أن يسطر بيده قواعده الرهيبة في كتابه "الأمير" لم يكن

يدرى إلا أنه يختط للإنسانيـة وأجيالها المتعاقبة صورا " واقعيـة " من السلوك الاجتماعى مفرغة فى قالب رائع استعان فى صياغته بقوى ذهنه الخصب ، وهو فى هذا لا يعدو مهمة الفيلسوف الذى يعمل بصناعة التصوير والتخييل المقـام الأول فى كل ما يتداوله فكره من مبادئ وتعاليم .

وعلى هذا اذا كنا نرى فيما تعاور المجتمع الاسلامى من أحداث السياسة ، وما تقاذف أسرة الحاكمة وأصرابه الطامحين من ألوان الخطوب وما خاصة رجل المغامرة والاغتصاب من دسائس ومؤامرات ، اذا كنا نرى فى هـذا كله وفى أبطاله صفات " المكيافيلية " المتطرفة فى وسائلها وغاياتها ، فانما تفسير هذا ينحصر فى أن سياسة المؤامرة تجنح حتما وسط كل معترك يحفل بعوامل الطمع والمنافسة والتطلع ، وأن هذه المبادئ المرذولة تجد سبيلها الممهد الى قلب كل أمة وكل طائفة ، بل وكل فرد ، لأن الطبيعة البشرية الطامحة المتحفزة قلما تتغير أو تتبدل !

عرف المجتمع الاسلامى إذن لونا من هـذا التآمر المكيافيلى يقوم به الخلفاء فى وجه أتباعهم وأعوانهم ، أو يقوم به الحكام والولاة والقادة فى وجه أخصامهم ومنافسيهم ، خشية استئثار هؤلاء بجانب من السلطان والسيادة أو بهما جميعا ، وتلبيا لأطماعهم قبل أن يستفحل أمرهم فيطرحون واجب الامتثال والطاعة وتحدثهم أنفسهم بالانتقاض والثورة .

فأبو مسلم الخراسانى كان أحد أبطال الانقلاب السياسى الهائل الذى تغشى المجتمع الاسلامى فى مؤخرات عهد الأمويين ، وكان الزعيم المجلى والرأس المدبرة فى سياسة القضاء على سلطان الأمويين وتذليل أمر الخلافة للعباسيين ، بعـد أن نجح فى بث الدعوة لهم واستنصار المسلمين لجانبهم واستعدائهم على الأمويين .

بيد أن الخليفة المنصور لما استشعر فى خاصة نفسه خطر هـذا الرجل وجلال قدره يستفحلان فى خراسان وما وراءها ، أوجس منه خيفة وبيت له الشر لا لسبب جناه الرجل يتغفه موقف الاتهام من الولاء لهم والإخلاص لدعوتهم وهو الذى ثبت قوائم الخـلافة للعباسيين وأسلس لهم زمام الحكم ، ولكن لأن الروح " المكيافلى " الذى تعكسه طبيعة الإيجاس والحـذر فى كل نفس طامحة متوجسة ، دفعت المنصور إلى التآمر على نصيره الأكبر ، فاستدرجه اليه بحيلة أفلح بها فى القضاء عليه ! ومن ثمة كان هذا القتل السياسى الغريب وحيا جديدا للخلفاء والأمراء يمدهم بألوان من التسويغ والتبرير ، يتقدمون بها الى رعاياهم ووجوه أقوامهم ، إذا ما حدثتهم أنفسهم بالتآمر على حياة معشر آخرين من خدام الدولة ورجالاتها ، يخشون منهم وهم التطاول إلى مزاحمتهم على سلطانهم حتى ولو كان الخلفاء فى ذلك جدواهمين وحتى مخدوعين !

ثم كانت تلك المؤامرة الكبرى التى زلزل لها المجتمع الاسلامى ، وراح ضحيتها رجال عظام أفنوا زهرة العمر وأراقوا ذوب الكد والعزم فى تجلية دولة الرشيد فى أبهى مجالى العز .

والمؤيد ؛ ولقد انساق الرشيد إلى ارتكابها بذلك الدافع الخداع المرن الذي يبرر له ويزيد استحلال أروع الوسائط في طلب مستكره الغايات وأعني به دافع المحافظة على حقوق السلطان وتثبيت دعائم الخلافة . وزاد الرشيد على ذلك أمرا كان له في تسويغ قتل جعفر وذويه مبرر في أذهان من روعتهم هذه النكبة الداهمة تنبعث لتعصف ببيت من أمجد بيوتات الدولة وتقتلعه وشيكا من مراكز الحكم والقيادة لتقذف به في مهاوي الدمار والعدم .

وهكذا بث سياسة التبرير والاعتذار من قرة السخط الذي كان يضطرم في قلوب الناس انعدالة الخليفة وخديعته : لما رأوا أتباعه يصرون على مقت حسابهم فيوحون اليهم أن في استئصال أمر البرامكة استئصالا لأخطار القومية الفارسية التي كان يعمل لها سرا أولئك الوزراء ، ويمهدون بها للقضاء على القومية العربية الظافرة .

ونحن إذا وازنا بين ما قدمته هذه الأسرة الفارسية العظيمة من روائع الخدم وجلائل المآثر في التنظيم والتشييد والتعمير ، وحكم الدولة حكما عادلا مستنيرا ، ثم قارناه بمدى ما يمكن أن يعلق بأشخاص البرامكة من حقيقة تلك الأوهام والريبات والاشاعات التي كان يدس بها الى الرشيد خصوم البرامكة وشانئوهم ، وعلى رأسهم آل الربيع ، بان لنا أمر الحكم على الفلك السياسي الماثل في ضوء الظروف السياسية والأدبية التي اكتنفت الرشيد وأسلمت بيده الجبارة الى البطش بعيون خدامه وفخر دولته ومملكته .

كانت سياسة الدولة العباسية تجنح الى مناهضة الشيعة وتشتيت جموعهم والقضاء على زعمائهم ودعاتهم في غير هوادة أو تكلف ، وكانت تعتمد في تنفيذ هذه السياسة على كثير من الفارسيين الذين قامت على أكتافهم الدعوة العباسية وركنت اليهم حكومة المنصور ومن تلاه من الخلفاء حتى جاء الرشيد الذي استرسل في الاعتماد عليهم ، فاستوزر يحيى بن خالد وجعله الحاكم المتصرف في مهام الدولة جليلها وصغيرها ؛ وساعد يحيى في سياسة الرعية ومعالجة أمورها بنوه جعفر والفضل ومحمد وموسى ، وكلهم كان صاحب عزم وشهامة ، وأخا ذكاء وهمة ورجل إخلاص وولاء . وكان عليهم أن يتابعوا الرشيد في سياسته إزاء الشيعة وأن ينهضوا بدولته نهوضا يحقق أحلام الرشيد العريضة في دنيا السلطان والغلب . وأن يراعوا شؤون الدولة داخل حدودها بما يجعل شوكة الخليفة هي الغالبة وكلمته هي العليا ، فلم يمض من الزمن الا أقله حتى أصبحت مرافق الدولة ومقاليد الشؤون العامة والخاصة ومصاير المجتمع الإسلامي في أيدي البرامكة يوجهونها وجهة سليمة مستقرة . فانتظمت جباية الخراج وزادت موارد الدولة واتسعت رقعتها واستتب الأمن في أنحائها ، وازدهرت التجارة وتوثقت العلائق السياسية والاقتصادية بين المسلمين والفرنجة وذاق الشعب مراتع الحضارة ومناعم العيش ، فنبغ من أفراده نفر جليل من الفقهاء والشعراء والكتاب ابتعثوا للأدب والفقه العربيين نهضة مباركة ألمت بكثير من أسباب الحضارة وأفانين العيش التي كان الناس يحيونها في ذلك الزمان ، واطردت هذه الحياة الزاهرة

اليانعة طوال حكم البرامكة الذى استمر زهاء سبعة عشرة عاما لا يعوق الدولة خلالها جمود عن التدرج قدما فى مدارج الارتقاء والسؤدد . بيد أن انهيار أسرة البرامكة بشكل أسباب عدة مهد لهذا التأخر في مشرق امبراطورية الرشيد ومغربها ، وما كان يلقاه جعفر والفضل وأبوهما يحيى من ضروب الإجلال والتكريم حظى بها الرشيد وكثير من آل بيته ، أثار عليهم سخط البيوتات الأخرى التى نفست عليهم هذه المكانة الحسناء والثروة الشامخة ، ورأت فى تهاون الرشيد فى اعدائه ومعاديه فرصة سانحة لمواصلة الدس لهم والوقيعة بهم والتماس النيل منهم عنده . وكان على رأس هؤلاء المنافس حاجب الرشيد الفضل ابن الربيع وهو أحد أخصام البرامكة وصاحب الأثر الأكبر فى إحداء الهاوية فى حقهم وتأليب الخليفة عليهم وانتهائه إلى جمع العزم على قتل جعفر وسجن يحيى وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى ، ومصادرة جميع أموالهم وتجريدهم من ألقابهم وتشديد النكير عليهم فى محابسهم حتى لقد مات يحيى فى سجنه من فرط ما لاقى من هوان وإذلال ، وأعقبه إلى القبر بعد قليل ابنه الفضل ، وضربت على الباقين الذلة والمسكنة ، إلى أن جاء الأمين ومن بعده المأمون فردا لمن بقى منهم أملاكهم وحقوقهم ، ولكن الأسرة بعد أن فقدت أعاظم رجالها ، لم تقم لها قائمة ، فلقد فدحتها هذه النكبة الداهمة وأورثتها الأفول والزوال . ويجئ دور المؤرخ المحقق ليدرس هذه الوقائع والمقدمات التى تسوقها الرواية أو بعضه وإن تناقض رواتها فى كثير من تفاصيل هذه المأساة ، ويحاول أن يصل منها إلى نتيجة يقبلها العقل ويرضاها الضمير لاستشراف الحكم من خلالها على الرشيد .

فالمؤرخون الإسلاميون وعلى رأسهم العلامة ابن خلدون يذهبون فى تأويل المأساة إلى تفرد البرامكة بالأمر واستئثارهم بشؤون الجباية وأموال الدولة وعدم خروج درهم من الخزائن دون أمرهم وإذنهم ، حتى لقد كان الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة من المال فلا يجدها إلا إذا أجازوها له . ثم كان ذهاب صيتهم وذيوع شهرتهم بين الناس خاصتهم وعامتهم ، عالمهم وجاهلهم ، لما كانوا يغدقونه على الجميع من سوابغ النعم ، وما كانوا يجزلونه لرجال الأدب خاصة من المنح والعطايا ، سببا فى غيرة الخليفة منهم وخوفه على اسمه وأبهته وصيته من أن ينالها ما ينالون من جلالها وإشراقها فى أنحاء دولته . ولقد جاءت ثالثة الأثافى لما تحقق الخليفة من إطلاق جعفر لسراح يحيى بن عبد الله ، وكان داعية خطيرا من دعاة الشيعة خرج على الخلافة وقام بثورة دامية كبدت الرشيد كثيرا من الأنفس وطائلا من المال حتى أفلحت جهوده فى إخمادها وأسر يحيى بن عبد الله زعيمها ، وقد استودعه الخليفة جعفرا وأوصاه بفرض رقابة ساهرة يقظة عليه . فلما علم الخليفة بإطلاق جعفر لسراح يحيى واستمع لوسوسة أعداء البرامكة بدأت خوالج الشك ونوازع الريبة تساور صدره وتضغط على قلبه وتجعله لا يثق بنوايا البرامكة ، فأخذ يحبس عنهم كثيرا من مظاهر عطفه ورعايته ، وكلما زادت وسوسة آل الربيع وغيرهم للخليفة ، زاد هذا انقباضا عنهم وتحذرا منهم ، ولم تقف

دعاية أعدائهم إلى حد ، بل لقد جاوزت هذا كله إلى أمر أحفظ الخليفة وأرعبه وأثار بلابله ، فلقد وقر فى ذهنه ، بوحى تجاربه والمحيطين به من رجال البيوتات العربية التى كيفت بيت البرامكة مهادها ومجدها ، أن هؤلاء الوزراء يعملون جادين فى سبيل تقوية القومية الفارسية والاتجار بالأمة العربية فى شخص أمير المؤمنين ، حتى يستوى للأعاجم الأمر بعد أن طال استكراه العرب لهم على الرضا بالخضوع والامتثال لأحفاد الغزاة الأول الذين خرجوا من أعماق جزيرة قاحلة ليدمروا حضارة للأكاسرة كانت تطاول حضارة الروم فى ذلك الزمان .

وفى الحق إن شيئا من هذه الوقائع لم يكن من قوة الثبوت وسطوع الحجة بحيث يقض مضجع الخليفة ويضطره أن يحذر هؤلاء الرجال الذين لا يوحى ثبت صنائعهم وما أسلفوه من خدم للخلافة وللامبراطورية العربية ، بما كان يوسوس به أعداؤهم للرشيد ، وإذا كان فى إطلاق سراح يحيى بن عبد الله ما يؤخذ منه شىء عليهم ، فإن أحدا من عقلاء القوم لا يمكن أن يريش سهام الاتهام اعتباطا إليهم ، ولا سيما وأنهم قد ساعدوا الرشيد فى سياسته العدائية للشيعة ولم يؤثر عن واحد منهم أنه ضالع مع أحد دعاتهم أو حازب جماعة منهم ، بل إنها الأوهام المدسوسة جسمت لمخيلة الرشيد حياطة الأخطار به من هؤلاء الذين أصدقوا الخدمة له ولآل بيته ! وليت شعرى أى مظهر من مظاهر « الوهم القومى الفارسى » يمكن أن يخلو للرشيد حقيقة واقعة من تآمر هؤلاء بدولته والدس لخلافته وحشد قوات الفارسيين المادية والأدبية فى نواح معينة من الخلافة مثلا ليكونوا طوع أمرهم عند ما يستعدون أنصارهم على أمير المؤمنين وآل بيته ، وهم الوزراء الذين كانوا دوما فى سكناتهم وحركاتهم فى دائرة رقابة الخليفة وتحت سطوته ، كم من مهام الدولة وشواغلها وسابق إخلاصهم للرشيد وغيرتهم فى إعلاء مجده ومجد دولته ، ما يأخذ عليهم آفاق تفكيرهم جميعا يزاد على هذا أن أكثر مجالسهم التى استفاضت بأخبارها ونوادرها كتب الأدب والتاريخ العربى ، كانت مفتحة الأبواب للكافة يغشونها ، وكان لهم من الأعداء مايجعلهم لا يجدون ألذ فى الرد على تافه وشاياتهم وحقير سعاياتهم ، من إخلاص الخدمة للرشيد وصدق المشورة له ولبيته ، وكانوا فى هذا السبيل دائمى التفحص فى تحقيق مايسر الرشيد ويرضيه ويزكى دولته ويعليها .

فحيثما طالعنا وجوه المأساة ومقدماتها وسوابقها لا يسوغ لنا العقل إقرارها فى هدى تلك الاشاعات والسعايات التى توسل بها أعداء البرامكة لتحطيم سعادتهم والنيل من رائع إخلاصهم وولائهم لأمير المؤمنين ولدولته . ولكنا إذا درسنا وقائع هذه المأساة فى هدى التعاليم المكيافيلية وروحها السارية فى الطبائع البشرية مسرى الدماء فى الأعراق ، وجدنا أن الرشيد فى أخذه بمنطق هذه السياسة الباغية ، قد تكون له أمارة من العذر له تبرر له تعجيله بالقضاء على مجدهم ، وإن كان فى قدرته أن يحطم هذا المجد الجيل بوسائل أخرى غير القتل والسجن ، إذ لم يكن القتل والسجن وسيلة لأخذ الأبرياء بالأوهام ولا لأكذوبة المشاعة

عنهم ولا سيما والقوم لم يخوضوا غمار مؤامرة يقضون بها على خلافة الرشيد ، فهذه الوسائل الملتوية لا ينفذ أمرها إلا فى مجتمع انحط فى أخلاقه وخوت مثله العليا وطرائق تفكيره إلى حضيض مسف . ولم يصل مجتمع الرشيد إلى هذا الدرك قط .

بيد أن المنطق الميكافيلى الذى يتمثل فى قولة مفوره الأكبر وواضع قضاياه وأقيسته : " إن الأمير الذى يريد تثبيت دعائم عرشه ، لابد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والأمانة والمروءة والدين ! " ، هذا المنطق الصريح هو الذى طبع الرشيد ومن سبقه ومن قفاه من الملوك والأمراء والساسة على مدى الأعصار ، فكان التنكر للمعانى الإنسانية السامية نبراسا ومعاجا يحفز ساسة العالم إلى توجيه مصاير المجتمع البشرى وجهة باغية تسيء كثيرا الى الحضارة والعمران .

ولكن عصر الشورى والديمقراطيات الذى تخفق أعلامه اليوم على كثير من دول العالم هيأ للرأى العام أن يكون خير حاكم على حكامه وساسته وأصبح المبدأ الميكافيلى بمثابة الطفرة الاجتماعية التى تأباها نواميس التوازن الاجتماعى الواجب توافرها فى قوى المجتمع .

وإذا كان لنا أن نستخلص عظة اجتماعية حية من خلال هذه الصفحات المطوية من تاريخ الإسلام فهى أن القوة الغشوم لا تجدى فى تنظيم مرافق الاجتماع البشرى ، فلن تنتظم أحوال أمة لم تقعد نظمها الاجتماعية والسياسية على أساس راكز من الرأى العام الحر المستنير .

صلاح الدين الشريف